العهد الثانى

الملك المكرّم الصليحى

ظهر المكرم بن على الصليحى الهمدانى ملك اليمن على صفحات التاريخ بعد مقتل والده الملك على الصليحى الذى مر ذكره . وقد اتصف المكرم بالشجاعة وكرم الأخلاق والتسامح وعلو الهمة وكأنه نسخة عن والده . وفيه يقول صاحب قلادة النحر : « كان المكرم ضخماً شجاعاً وفارساً مقداماً » . وقد مر معنا فى الصفحات الأولى أن الإمام الفاطمى المستنصر بالله منحه لقب المكرم سنة ٤٥٦ هـ ، وأصبح وليًّا لعهد أبيه بعد وفاة أخيه الأكبر الأمير الأعز ، ثم أخذ يتدرب على إدارة شؤون البلاد حتى إن والده حينما عزم على أداء فريضة الحج سنة ٤٥٩ هـ أنابه عنه فى حكم البلاد ، وكان قبل ذلك قد وكل إليه إدارة إقليم الجَنَد وما جاوره من البلدان ، ولما جاءه خبر مقتل والده الملك على فى المهجم ، وأسر والدته ، والقضاء على خيرة رجال دولته ، وقع المكرم فى حيرة ، وكاد يقضى على صرح الدولة الصليحية قضاء مبرماً لأن أعداءها تأهبوا للانتقاض عليها فى تلك الفترة ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل أخذ

كثير منهم يتوثبون للثورة وإيغار الصدور ، وكاد يخرج أمر الصليحيين من كافة بلاد اليمن ؛ ولم يبق لهم إلا التعكر ، وفى هذه الأثناء كان الأحباش — وقد نالوا شيئاً من الانتصار — يتمادون فى غيهم . فحاصروا مالك بن شهاب الصليحى فى حصن مسار ، وتآمرت القبائل من كحلان وهران وعنس وزبيد ويحصب على الصليحيين ، وامتدت العدوى إلى صنعاء نفسها حتى كان المكرم يقيم مع جماعة من خلصاء أتباعه لا يزيد عددهم على ستمائة من الحجازيين .

فماذا يفعل المكرم والأعداء قد أحاطوا به من كل جانب ، وطمع فيه كافة الأعداء ، وظهر أكثر الذين كانوا يتوددون إليه بمظهر العداء الواضح ، وغدا فى حرج ، وأنى له أن يتخلص من هذا المأزق ؟ على أنه لا بد من تعليل هذا الموقف بأمرين :

أولا : أن أهل اليمن لم يألفوا الخضوع لسلطان حكومة مركزية كالتى تمكن على الصليحى من تأسيسها حين ضمّ بلاد اليمن جميعها تحت لواء واحد ، وأصبح يخيم من الحجاز شمالا إلى حضرموت جنوباً ، كما تمكن من ثل عروش أمراء اليمن الأقدمين وكبح جماحهم ، وإقصائهم عن إماراتهم بجمعهم فى صنعاء تحت مراقبته ، وتعيين ولاة ممن يثق بهم بدلا عنهم . كما استطاع الصليحى فى حقبة

وجيزة من الزمن أن يغير ما يجول فى الأفكار ، وأن يبدل ما يعتنقه اليمنيون من عادات . وهى استقلال الشعوب وانفرادها بالحكم .

ثانياً : أن خضوع اليمن كلها لسلطان الصليحى لم يكن عن رغبة من أهلها ، بل كان نتيجة للحروب والرهبة والقوة الفائقة والدهاء السياسى ، فكانت حالة الشعوب خضوعاً فى الظاهر ولكن القلوب لم يكن قد تمكن فيها حب النظام وترك العشائرية والاندماج فى بوتقة الدولة الموحدة ، وإطاعة أولى الأمر ؛ ولهذا فإن الكثيرين من أمراء اليمن رأوا فى موت الملك على الصليحى فرصة تمكنهم من العودة إلى ما كانوا عليه قبل تملكه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة .

وهنا يقرر المكرم قتال هؤلاء الذين خرجوا عن حظيرة دولته مع علمه بأن هذا الخروج ساهم فيه معظم الأمراء والرؤساء والقبائل ، ولما استعرت الأرض ناراً حوله ، كان لابد له من معالجة إطفائها والتغلب على هذه الحالة الرهيبة التى لم تر الدولة الصليحية مثلها ، فصمم بصدق وعزيمة ، واستمد مما نسميه شجاعة اليأس قدراً كبيراً ، وأخذ يشجع من ظل من أصحابه على الولاء وملاقاة الصعاب ، وقد صور المؤرخ اليمنى إدريس عماد الدين فى تاريخه « عيون الأخبار »

هذا الموقف بقوله :

« وكان المكرم يثبت أصحابه على الدين ، ويذكرهم بما وعد الله به عباده الصابرين ، وبما ابتلى به مواليه الطاهرين ، فاستطاع هو وأعوانه أن يرفعوا عن صنعاء الحصار ، ويتتبعوا الأعداء فانتصروا فى ناحية حَضور انتصاراً تنفسوا بعده نسيم الأمل ، وحاربوا الأعداء فى كل مكان ، والله يعطيهم النصر ويبسط يدهم عليه » .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا النصر كان مشجعاً لأنصار المكرم على الاستماتة فى الدفاع عن كيانهم ، فانتصر قائده إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى بجهة كحلان وهران ، وأخذ هذا الجو المظلم الذى أحاط بالدولة يصفو رويداً رويداً ، وبدأت الشدة التى حاقت بهم تنقشع بفضل شجاعة المكرم وحسن بلائه وبسالة جيشه وقواده الأبطال .

هذا ، وبينما كان المكرم فى غمرة الاستعداد لمتابعة الأعداء ، وتحرير البلاد من الناكثين ، كان قواده عامر ابن سليمان الزواحى ، ومدافع بن حسن الجنبى ، وعمران ابن الفضل اليامى ، والحسين بن عمر السنحانى وغيرهم فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج مع الملك على الصليحى كما ذكرنا ، ولكنهم قفلوا عائدين إلى صنعاء عندما سمعوا

بمقتل ملكهم من قبل الأحباش فى المهجم . وقد لاقوا فى طريقهم صعاباً كثيرة من الأعداء ، فأوقعوا فى أكثر من سبع عشرة واقعة . وفى جميعها كانوا يحرزون النصر على أعدائهم والظفر بهم .

وعندما وصلوا إلى صنعاء كان المكرم فى مسيس الحاجة إلى نجدتهم ورأيهم ؛ فكان فرحه بوصولهم عظيما ، حتى إنه خر ساجداً لله شكراً على وصولهم سالمين ، فلما اجتمعوا به تواصوا بينهم على الصبر فى قتال الباغين والجهاد فى سبيل الدين ، وقرروا ألا يطالبوا الملك المكرم بدينار أو درهم ولا بأى شىء حتى يظفر بالأحباش ، وينال منهم ثأره ببلدة زُبيد ، وتعاقدوا وعاهدوا الله على ذلك .

من هذا نرى أن المكرم أخذ يجمع حوله قوة من أنصاره ، وأصبح لزاماً عليه أن ينظم هذه القوة ، وأن يعدها إعداداً حسناً لمواجهة الموقف ؛ ومما لا شك فيه أن هذا التنظيم كان يقتضى الكثير من التدبير والحزم ، والشجاعة وإعمال الرأى ، وذلك حتى يتمكن بهذه القوة اليسيرة من إعادة الخارجين عليه إلى صوابهم ، ويأخذ بثأره من الأحباش النجاحيين بتهامة ؛ وقد أحسن المكرم التدبير ورأى بمشورة خلصائه أن وجود والدته الملكة السيدة أسماء أسيرة فى يد

سعيد الأحول عدوهم الألد لا يمكن التغاضى عنه .

وأصبحت هذه الصورة القاتمة مرسومة فى مخيلته تحزّ فى نفسه وتقض مضجعه ، وقد انعكست هذه الصورة أيضاً فى نفوس أصحابه المخلصين ، فأصبحت نار الغيظ تأكل أكبادهم . وتشحذ قرائحهم ، وتؤجج نفوسهم الأبية ، ولكن ما العمل؟ وعوامل الاضطراب محدقة بدولتهم فى الداخل والخارج ، والفتن والثورات منبعثة فى مختلف الأرجاء ، فقد شق عليهم عصا الطاعة كل ناكث مخادع ، وأصبح نفوذهم إلى الزوال أقرب ، لذلك رأوا من الصواب كبح جماح كل من حدثتهم أنفسهم بالخروج عليهم ، والضرب على أيدى الخارجين ، وتطهير البلاد من الفتن والثورات ، وإعادة الأمن إلى نصابه ، ثم التوجه بعد ذلك إلى الأخذ بالثأر .

فأرسل قائده المخلص عامر بن سليمان الزواحى إلى بلاد حمير ، وإلى مغرب اليمن لإصلاح الفساد ، فجاء إليه أهل هذه البلاد طائعين ، غير أن فئة منهم ظلت معتصمة بالحصون تقاوم فقاتلهم قتالا شديداً ، وتتبعهم أخيراً فى السهل والوعر ، وفى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة سنة ٤٥٩ هـ وصلت كتبهم إلى الملك المكرم مستجيرين .

وجاءه بعد ذلك كتاب من قائده « إسماعيل بن أبى يعفر »

يخبره فيه بانتصاراته على أهل يحصب وُرعين بجهة كحلان وهرّان . وأنهم دانوا له بالطاعة بعد حرب سجال دامت فترة قصيرة . فسر بذلك المكرم . وأخذت الروح المعنوية تدبّ فى نفوس جنوده . واتخذ من هذه الانتصارات المستعجلة وسيلة للاستعداد لنصر آخر . وكان فى أكثر أوقاته يحث أتباعه ويذكرهم بما وعد الله عباده الصابرين من النصر والفوز ولو بعد حين .

وبينما كان المكرم وكبار رجال دولته مشغولين باتخاذ الأهبة لحفظ كيان دولتهم وتخليصها من سطوة أعدائهم ، وإعادة ما تحت أيديهم إلى حالتها الأولى ، ظهرت فى الأفق سحابة غطت هذا الجو برهة من الزمن . وشغلت المكرم وأعوانه عن متابعة الأعداء ، تلك هى الحركة التى قام بها سنة ٤٥٩ هـ الأمير الزيدى حمزة بن أبى هاشم الحسنى ، بعد أن التف حوله فريق من الناس وبايعوه على القيام بدعوته ، فقام يحمل الدعوة على منكبيه واصفاً إياها بأنها دعوة التوحيد ، ولم يكتف بذلك بل ادعى الإمامة وسمى نفسه أمير المؤمنين ، وهذا ما جعل العديد من القبائل تنضوى تحت لوائه ، وتصير له عوناً وحرباً على الصليحى ، فزحف إلى صنعاء ومعه خمسمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل من همدان وغيرهم إلى أن بلغ

الملوى فى بلاد أرحب . وفى هذه الأثناء أرسل المكرم إلى قائده عامر بن سليمان الزواحى يدعوه من مغرب اليمن ، فوصل فى صبيحة اليوم التاسع عشر من ذى الحجة سنة ٤٥٩هـ فى خمسمائة من حمير . وخرج المكرم من صنعاء منضماً إليه ، وكان معه أيضاً القائد أحمد بن المظفر الصليحى ، ومعه جماعة من الجنود . وذلك فى صباح الحادى والعشرين من ذى الحجة فى نفس السنة فوافوا الشريف بالملوى يوم الجمعة ؛ ووقع القتال بين الطرفين ، وكاد النصر يفلت من أنصار الملك المكرم ، ولكن الدائرة دارت أخيراً على الشريف وأصحابه الذين ولوا الأدبار هاربين تاركين الشريف وابنه ، فقتلا مع القواد وزعماء أكثر القبائل التى كانت معهما . هذا ، ويقول إدريس عماد الدين فى تاريخه « عيون الأخبار » :

« فما انجلت الموقعة إلا عن ثمانمائة قتيل من أصحاب الشريف ».

وعندما كانت هذه المعركة دائرة حول صنعاء كان الأعداء يترقبونها . ويعتقدون أن عليها تتوقف الأمور ، فلما انقشعت السحابة وتم النصر للصليحى ، عاد وأتباعه إلى التفكير فى تصفية موقفهم مع أعدائهم . وقد رأوا من الحكمة ألا يحاربوا النجاحيين فى زبيد قبل أن يثبتوا أقدامهم فى البلاد المجاورة المحيطة بصنعاء ، ويأخذوا الأمان

من جميع القبائل التى يخشون خروجها فى غيبتهم عن بلادهم . لذلك أرسل المكرم من قواده : أحمد بن المظفر الصليحى ، وإسماعيل بن أبى يعفر الصليحى . وعامر بن سليمان الزواحى ، إلى حراز وكان كبار أهلها لا يزالون يدينون بالطاعة لسلطان الصليحيين . على حين كان الدهماء منهم يحاصرون حصن مسار حيث كان به مالك بن شهاب الصليحى ؛ وفى طريقهم إلى هذا الحصن وافاهم الكثير من قبائل مجيح وكرار حيث قدموا فروض الطاعة وتقدموا بعد ذلك إلى حصن مسار فاستولوا عليه ، وأقام جيشهم ثمانية أيام فى حراز لم يتركوها إلا بعد أن أخذوا العهود على من حولها من القبائل ، ثم نهضوا لمحاربة بكيل ؛ وكانت شوكتهم على المنابذة قوية وصولتهم على المحاربة شديدة ، وشدتهم على الجلاد عتيدة وآمالهم فى التمادى بالعصيان بعيدة ، فبلغ جيش المكرم بكيل فى أول محرم سنة ٤٦٠ هـ وأمر القواد جندهم بالكف عن القتال فى ذلك اليوم ، وأخذوا يراسلون بكيلا ويلاطفونهم ؛ فأبوا إلا عتوًّا واستكباراً ، فلما حان وقت الظهيرة هبطت بكيل للقتال ، ونشبت المعركة الحاسمة ، وحمى وطيس القتال ؛ وكانت الدائرة على بكيل ، فقتل منهم ثلثمائة وعشرون رجلا من بينهم كثير من رؤسائهم وأولى النجدة فيهم ، وبعد أن

استقرت الأمور فى تلك الجهات عاد القواد الثلاثة إلى صنعاء غانمين ظافرين .

وفى هذه الأثناء انتهز بنو نجاح فرصة انشغال جيش المكرم فى إخضاع بكيل وغيرها من القبائل . فأغار بلال وأبو الفتوح ابنا نجاح بعساكر كثيرة من العبيد والأحباش وأهل تهامة على أسعد بن عبد الله الصليحى فى حصن التعكر ، ووقع بين الطرفين قتال شديد دارت الدائرة منه على الأحباش بذى أشرق من قرى المخلاف ، فولوا منهزمين وغنم أصحاب الصليحى أموالا كثيرة ونجا بلال وأبو الفتوح بعد أن نظرا الموت عياناً .

ولما ثبتت أقدام الدولة الصليحية نوعاً بعد القضاء على الثائرين والمنتقضين ، واستقرت الأمور فى صنعاء وما حولها من الحصون والأقاليم ، عول المكرم على السير إلى زُبيد لتصفية حسابه مع الأحول ، واتفق فى تلك الأيام أن جاءه من أمه الملكة الحرة أسماء كتاب لطيف ، وقد احتالت بأن أوصلته إلى سائل وجعلته فى رغيف فلما كسر السائل الرغيف وجد الكتاب . فأوصله إلى المكرم وقد وجد فيه خبراً مثيراً لحفائظ الأسرة الصليحية وللعرب عامة ، فجمع الناس وأوقفهم على ما تضمنه كتاب أمه ، فضجوا بالبكاء . ولم يزل المكرم يخطب

الناس فى كل مكان : ويقول لهم : « من يكن يرغب فى الحياة فلا يكن معنا » إلى أن صفا له من الخلصاء عدد كبير فخطبهم وعرفهم بأنهم سيقدمون على الموت ، فمن أراد الرجوع فليرجع كما اتفق عند مسيره أن وصل عمران بن الفضل اليامى . وحسين بن عمرو السنحانى ومنصور بن محمد اليامى فى جماعة كبيرة من العرب فانضموا إليه . وخرجوا قاصدين الأحباش . وكان ذلك فى التاسع عشر من شهر صفر من السنة نفسها كما انضم إليهم أحمد بن المظفر الصليحى ، وعامر بن سليمان الزواحى بن عمرو السنحانى وأبو الحسين ابن مهلهل بن الدعام ، ومدافع بن الحسين الجبنى ، ومحمد ابن على اليامى . وأمر المكرم بألا يسير فى جيشه إلا كل من آنس فى نفسه الصبر والبأس على الآلام ، أو آثر الموت على الحياة ، ورضى بالشهادة . وترك المكرم فى صنعاء إسماعيل ابن أبى يعفر الصليحى نائباً عنه ، ومعه جماعة من أهل الحجاز وأهل حراز ، وقد أخذ قبل خروجه العهود والمواثيق على الشريف القاسم بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم العيانى ، وعلى أخيه ذى الشرفين محمد بن جعفر ، وأحسن إليهما ، وأمر للشريف بكسوة فاخرة ودنانير كثيرة . فعاهداه على الطاعة وعدم الغدر فى غيبته فشكرهما على ذلك .

وخرج المكرم من قرية العَمد فى السادس من شهر صفر فى عشرة آلاف راجل وفارس فخطبهم ووعظهم بقوله :

« إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نُصيبه ، ولا لمال نخزنه . ولا لشىء نذهب به من متاع الدنيا : سوى إدراكنا ثأرنا من هؤلاء العبيد والأحباش واستنقاذ حريمنا . وإن قصدنا ليس الإضرار بأحد من الناس ولا تغيير شىء مما يملكون ، وعلينا ألا نتعدى على زروعهم ومواشيهم وحريمهم ونحن فى طريقنا .. وقد رجوت أن تكون سيرتكم جميلة ، ولكم حسن الأحدوثة فتنالون حميد العاقبة والثناء ، ولا أنهاكم عمن وتركم ونال منكم ، وحاول أن يفاجئكم » .

هذه الوصية تكشف عن فروسية المكرم وشهامته وكرم أخلاقه وعزة نفسه ، وتظهره لنا بمظهر الرجل الذى لا يريد إلا حقه ، كما تبين لنا أيضاً أنه ما أراد إلا أن يثأر لنفسه وقومه وينقذ والدته الملكة ، فنهى جنده عن كل ما يخل بالنظام والآداب ويسىء إلى سمعته ، ورجا ألا يكون تعدى جندى سبباً فى إثارة سخط العامة عليه .

ثم قام ثانية وخطب بجيشه السائر إلى المعركة خطبة بليغة قال فيها : « أيها المؤمنون لا أريد اليوم غير ما سمعتوه منى بالأمس وفيما قبله ، وفيما قلته كفاية ، وقد كنت أعرض

عليكم الرجوع ، وفى المسافة إمكان . فأما اليوم فقد صار الخيار إلى عدوكم لأنكم توغلتم عليه . وإنما هو الموت أو العار بفرار لا يجدى » . وتمثل بقول الشاعر المتنبى :

وأورد نفسى والمهند فى يدى موارد لا يصدرن من لا يحاوُل

ثم وطىء المكرم وجنوده تهامة من شرقى زبيد فقصدوا قرية « التربية » . ودخل المكرم مسجدها يوم الجمعة عند طلوع الفجر . وكان إمام المسجد الشيخ الزاهد محمد بن علية من أهل القرية قد صلى الصبح . ووقف يتلو بعض الآيات ، وإذا هو بفارس يركز رمحه ويسنده إلى الجناح الغربى ، ثم يقوم فيصلى فقال الشيخ : « مارأيت شخصاً فى ولد آدم أتم منه خلقة ، ولا أحسن منظراً ، وروائحه روائح الملوك » . ولم يلبث الصباح أن تجلى ، وكان المكرم واقفاً عنده حتى ختم ، ودعا وأمن هو ومن معه على الدعاء ، وإذا الخيل قد أقبلت عند طلوع الشمس أرسالا ، وكل رعيل منهم يسلم ويقف . وكانت تحيتهم له : أنعم الله صباحك مولانا ، وأدام عزك . ولا يزيدهم على الرد أكثر من قوله : مرحباً يا وجوه العرب . إلى أن تكاملوا ، ثم خرجوا من المسجد ، فركبوا خيولهم وقصدوا باب الشبارق ، وهو الباب الشرقى لبلدة زبيد ، وحين دنا المكرم من زُبيد عبأ

جيشه . فكان هو وأحمد بن المظفر الصليحى . وعامر بن سليمان الزواحى . وأبو الحسين بن المهلهل . والحسين بن عمرو السنحانى فى القلب . ومعهم قبائل نهد وسنحان وحمير . وكان عمران بن الفضل اليامى . ومدافع بن الحسن الجنبى . ومحمد بن على اليامى فى قبائل همدان من يام وجنب وسواهم فى الميمنة . وكان مالك بن شهاب الصليحى فى الميسرة ومعه الحرازيون . ثم أقبلوا على الأحباش وهم صافون على باب الشبارق . وكانوا ستة كراديس . وعددهم ثمانية عشر ألفاً . وهم مثل العارض الأسود . فتقابل الجيشان فى يوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ٤٦٠ هـ . وقاتل فى هذا اليوم سعيد الأحول وجيشه قتالا عنيداً حتى انطوى عليهم الجناحان . وهنا تراجعوا تراجعاً مخيفاً وهزموا شرّ هزيمة . ولكن خيل الصليحيين جالت عليهم جولة واحدة فانطحنوا طحن الرحى . وأتى القتل على أكثرهم . وكان سعيد الأحول قد أعد خيلا مضمرة على الباب الغربى المسمى بباب النخل . فسار مع من سلم من خواصه إلى البحر . وقد أعدت لهم سفن للنجاة هنالك . فركبها من فوره . وسار نحو جزيرة « دهلك » فى ثغر مدينة عدن . وكان سبب نجاته انشغال المكرم ومن معه فى الوصول إلى والدته

الملكة السيدة أسماء ، فلم يتتبع المنهزمين أحد ، ودخلت العرب زُبيد عنوة وظل القتال دائراً فيها حتى صلاة الظهر .

وكان المكرم أول من وقف تحت الرأسين المصلوبين أمام شباك البيت الذى تقيم فيه والدته الملكة أسماء . فقال لها وكان قد تنكر :

« أدام الله عزك يامولاتنا » فقالت : مرحباً بأوجه العرب . ثم سألته : من تكون ؟ فقال لها : « أنا أحمد بن على بن محمد » فقالت : إن أحمد بن على فى العرب كثير ، فاحسر عن وجهك حتى أعرفك — فرفع المكرم عن وجهه . فقالت : مرحباً بمولانا المكرم . من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ .

ثم دخل رؤساء العرب فسلموا عليها . وقد كشفت عن وجهها ، وكانت هذه عادتها فى أيام زوجها الملك على الصليحى . وذلك لسمو قدرها عمن يحتجب عنه النساء ، وقد نزل المكرم عن ظهر جواده وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر ، وعفر خده بالتراب ، وأحرق الدار التى اعتصم فيها الأحباش .

هنا يذكر التاريخ أن المكرم لما دخل زُبيد لم يجعل لأحد سبيلا إلى حريم بنى نجاح . وأطلق من وقع فى أيدى الجند من أولاد الأحباش . وقد يكون راعى فى ذلك ما سار الأحول

عليه من سيرة طيبة فى أثناء اعتقال الملكة أسماء وحرائر آل الصليحى .

وهنا لا بد لنا من التساؤل : لماذا لم ينتقم المكرم لأبيه وعمه وأهله بالفتك بهؤلاء الذين وقعوا أسرى فى يديه ؟ الجواب : هو أن المكرم — كما عرف عن أبيه من قبل حسن السيرة فى الرعية . والعفو عند المقدرة ، والتسامح مع المغلوبين — كان هو أيضاً ، فقد تمسك بهذه الصفات ، لأنه وجد فيها الخير كله . وكان يرى أن إدراك الثأر ليس فى الفتك بالأسرى ، بل بالاكتفاء بالقضاء على الجيش المعادى ، وتخليص أمه وأقاربه من الأسر ؛ مضافاً إلى ذلك أن معاملة الناس بالحسنى تقرب القلوب والأنفس إلى الطاعة . وبالفعل ملك المكرم مشاعر الناس بانتصاراته ، وبرّ بوعده الذى قطعه على نفسه أمام جيشه ، ولم يكن يرمى من وراء ذلك إلا تخليص أمه ولم يكن غرضه انتهاك الحرمات وإثارة الفتن كما ذكرنا .

وقد كتب بتلك الوقائع محبته فى نفوس الأصدقاء والأعداء على السواء ، وأطلق الألسن تلهج بالثناء عليه ، واشتهر أمره بما أظهره من ضروب الشجاعة والتسامح وعلو الهمة ، وارتفعت مكانته لدى الجميع على السواء ، فأحبه المُوالى

والعائد . وآثروا الخضوع إليه لا خوفاً من قوة بطشه بل رغبة فى عدله وشهامته . وقال الناس فيه : « والله إن الذى سماه ذا السيفين لحكيم » . وقبل أن يغادر المكرم زبيد نقل رأس والده وعمه إلى صنعاء وبنى عليهما مشهداً . وفى ذلك قال عُمَارة اليمنى : « وأنا أدركت مشهد الرأسين » . كما أقام أيأماً مهّد فيها قواعد البلاد ، وأقام رسم الدعوة الإسماعيلية الهادية على العادة الجارية .

وفى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ٩٦٠ هـ خرج المكرم من زُبيد يريد الإجهاز على الأحباش الهاربين ، غير أنه وصل إليه فى هذه الأثناء من إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى عامله بصنعاء كتاب يذكر فيه أن الشريف قاسم ابن جعفر العيانى نقض العهد . وأنه اتخذ من تغيب الجيش فرصة للانتقاض على صنعاء . كما جاء فى هذا الكتاب أن الوالى إسماعيل اشتد عليه المرض . وأن الحجازيين وأهل حراز قد وقع بينهم النزاع وساءت العلاقات ؛ فخاف المكرم أن ينال المخالفون من صنعاء ماسولت لهم أوهامهم ، فخف مسرعاً بالعودة ، ومعه أمه الملكة أسماء والحرائر الصليحيات . وفى رجوعها إلى قصرها فى صنعاء وخلاصها من الأسر قال الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمى :

أوبة أسماء إلى قصرها بعد فراق الملك الأوحد
وبعد عوصاء الخطوب التى رمت بنى قحطان بالمؤيد
كرجعة الشمس وقد جنّها دُجُنّ وسربال دجى أسود
فيالها من نعمة أصلها بأس ابنها بانى العلى أحمد

إننا نلاحظ أنه فى هذه الحروب قد ظهرت الروح الوطنية واضحة جلية عند العرب عندما أخذوا يثيرون حماستهم على الأحباش باسم القومية العربية . وكان الأحباش يشعرون بأن العرب لن يتركوا ثأرهم . وهذا يتضح من خطاب جياش ابن نجاح لأخيه سعيد الأحول بعد مقتل الملك على الصليحى فقد نصح له أن يغلك أسر السيدة الملكة أسماء . ويردها إلى ابنها المكرم بعد مقتل زوجها : وأن يعفو عن بقية آل الصليحى . ويكتب للمكرم ما معناه أننا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا ، وقد أحسنا إليك . وجملناك بصيانة والدتك ، والعفو عن بنى عمك . وزاد على قوله : بأنك إن فعلت ذلك لم ينازعك أحد فى ملك تهامة أبداً . وإن خالفت أغارت عليك قبائل العرب وطلبت بثأرها . فلم يجبه أخوه إلى طلبه . وتمثل بقول الشاعر :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا

ونعود إلى سيرة المكرم وعودته إلى صنعاء . فقد وجد الوالى

الأمير إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى قد اشتدت عليه العلة . ولم يمهله المرض غير عشرة أيام . ثم وافاه الأجل ؛ فحزن المكرم لفقده . لأنه كان ركناً من أركان الدولة . وكانت قبائل يحصب وعنس ورعين تدين له بالولاء وتخاف بأسه . وأخيراً عين مكانه ابنه عبد الله . وأطلق يده فى كل ما كان يضطلع به أبوه .

ثم أخذ المكرم بعدذلك يعالج الأمور التى تعقدت فى أثناء غيابه . ويصلح ما أفسده الطامعون . وكان أول هذه الأمور القضاء على الفتنة التى قام بها الشريف القاسم بن أبى جعفر العيانى الذى نقض عهده واستمال ذبيان وبنى جبير والدعام ، وحرضهم على الثورة ضد الملك المكرم . وقد وعدهم بظهور عمه الحسين بن القاسم الحسنى ، وكانت همدان قد قتلته قبل ذلك الوقت بستين عاماً . وأفهمهم بأنه سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً . فمال إليه فريق من الناس .

وقد كانت كل هذه الأمور مدعاة للمكرم بأن يتوجه إلى ذبيان بجيشه ويحاربها بحجة أنهم قد استولوا على أراض له . وفعلوا أفعالا لا يمكن السكوت عليها وما زال بها حتى أصلح ما فسد منها . فتقدم له كبراؤها الولاء . وهنا عاتبهم

على سوء تصرفهم ، وقربهم وأحسن إليهم . ولما كان شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ عاهدوه على السمع والطاعة ، وأن يخرجوا فى كل مكان يخرج فيه المكرم إلا تهامة — فإنهم بالخيار إن شاءوا خرجوا وإن شاءوا تركوا وقعدوا وأنهم لا يؤوون الشريف القاسم ولا يوالونه .

ولم يكتف الملك المكرم بذلك بل سار لإصلاح المغرب اليمنى وانتهى إلى اللومى حيث وافاه كتاب والدته السيدة الحرة أسماء بنت شهاب تخبره بورود كتابين من أسعد ابن عبد الله الصليحى ، ومن على بن سويد ، وعبد الله ابن معمر وقد جاء فيهما أن حسين بن مغيرة التبعى وأبا العباس السخطى وأبا إسماعيل الكلابى قد نزلوا إلى الحمراء بجميع أهل يحصب ورعين ، وأن سعيداً الأحول طلع من تهامة بجمع عظيم عازماً على فتح صنعاء ، وأن أخوى الأحول فى جمع آخر مقابلون لجيش أسعد بن عبد الله الصليحى بذى أشرق ، وأنهم يستعجلون قدوم الملك المكرم ؛ فلم يتمكن المكرم من الرجوع من مغرب اليمن ، لأنه كان قد قارب جبل مسور فلهذا قام المكرم من اللومى ، فنزل بقرية مدع . فلقيه هنالك محمد بن إبراهيم الصليحى وحاشد بن كديس الصليحى عامل مسور ومشايخ آل لاعة ، ولحقه عامر بن سليمان الزواحى .

ولما صار المكرم بالجبل المقابل لجبل حملان المطل على كافة بلاد المغرب وجدهم معتصمين فيه ؛ فظل حتى أسدل الليل ستاره . وعند الصباح أمر جنده بالصعود على جبل حملان من غربى الوادى تحت قيادة سليمان بن عامر الزواحى ؛ ومن أعلى الوادى تحت قيادة محمد بن إبراهيم وحاشد بن كديس ، وطلع المكرم بفرقة من جهة وسط الوادى . فأقبل أهل الجبل من كل حدب ينسلون ويكرون . وكان معظمهم فى الناحية التى فيها المكرم ، فنزل المكرم عن جواده وصعد هو الجبل فى مقدمتهم لا تثنيه النبال ولا الأحجار مما اضطر أهل الجبل إلى الفرار أخيراً . فلما ملك المكرم جبل حملان جاءوا إليه من جميع المغرب مذعنين فعفا عنهم وأحسن إليهم .

وعلم المكرم وهو فى حملان أن سعيداً الأحول قد صار بالمخلاف ، وأن التبعى والسخطى والكلالى ويعفر بن الكرندى ويحصب ورعين قد ساروا صفًّا واحداً فى جموع عظيمة بالشوافى يهددون سيادة الدولة الصليحية ؛ فذهب إلى صنعاء ، ومنها اتجه إلى المخلاف ، ثم انتهى أخيراً إلى وادى بينون ، فأخضع بنى صعب من عنس وبنى الحارث ومذحج ، وما زال فى طريقه حتى وصل إلى جبل الشعر الذى تحصن فيه التبعى والسخطى فى معظم يحصب ودرعين وعنس . وهم أهل النجدة والبأس

فقام المكرم بجميع عساكره بهجوم عنيف فى الوقت المعين على رأس الجبل معلنين بالتكبير والتهليل . فأجفل أهل الجبل وولوا الأدبار تاركين كثيراً من الغنم والمتاع . وفر التبعى والسخطى واعتصما بحصن القرانح شمالى غربى صنعاء . فأمر المكرم بحصار الحصن وقتالهما . ولما علم التبعى بكرم الملك المكرم وتسامحه وعفوه سلم نفسه فأعطاه الأمان .

وكان من أثر هذه السياسة المرنة أن أقبل الناس على المكرم يطلبون الأمان . فأجابهم إلى ما أرادوا . إلا أن ابن مغيرة التبعى فر ولحق بسعيد الأحول . وفى اليوم التاسع والعشرين من رجب سنة ٤٦١هـ توجه المكرم إلى صنعاء فدخلها فى اليوم السابع من شعبان . وهو يكثر من حمد الله والثناء على الإمام الفاطمى المستنصر بالله الذى شمله ببركته وولائه .

فى تلك الفترة عم الهدوء أنحاء دولة المكرم اليمنية ؛ بعد أن قضى على الفتن والثورات ؛ لأن أعداءه وجدوا فيه قائداً لا تلين قناته . كما وجدوا فى أنصاره قوة عزيمة وإيماناً واستبسالا فى الحروب تدل على ثقتهم بملكهم . وكل هذا كان مشجعاً له وحافزاً على التفكير بالثأر من سعيد الأحول وبنى جلدته الأحباش . وذلك ليستريح من شرورهم وآثامهم .

أجل ؛ كان المكرم يرى أن عدوه التقليدى لايزال

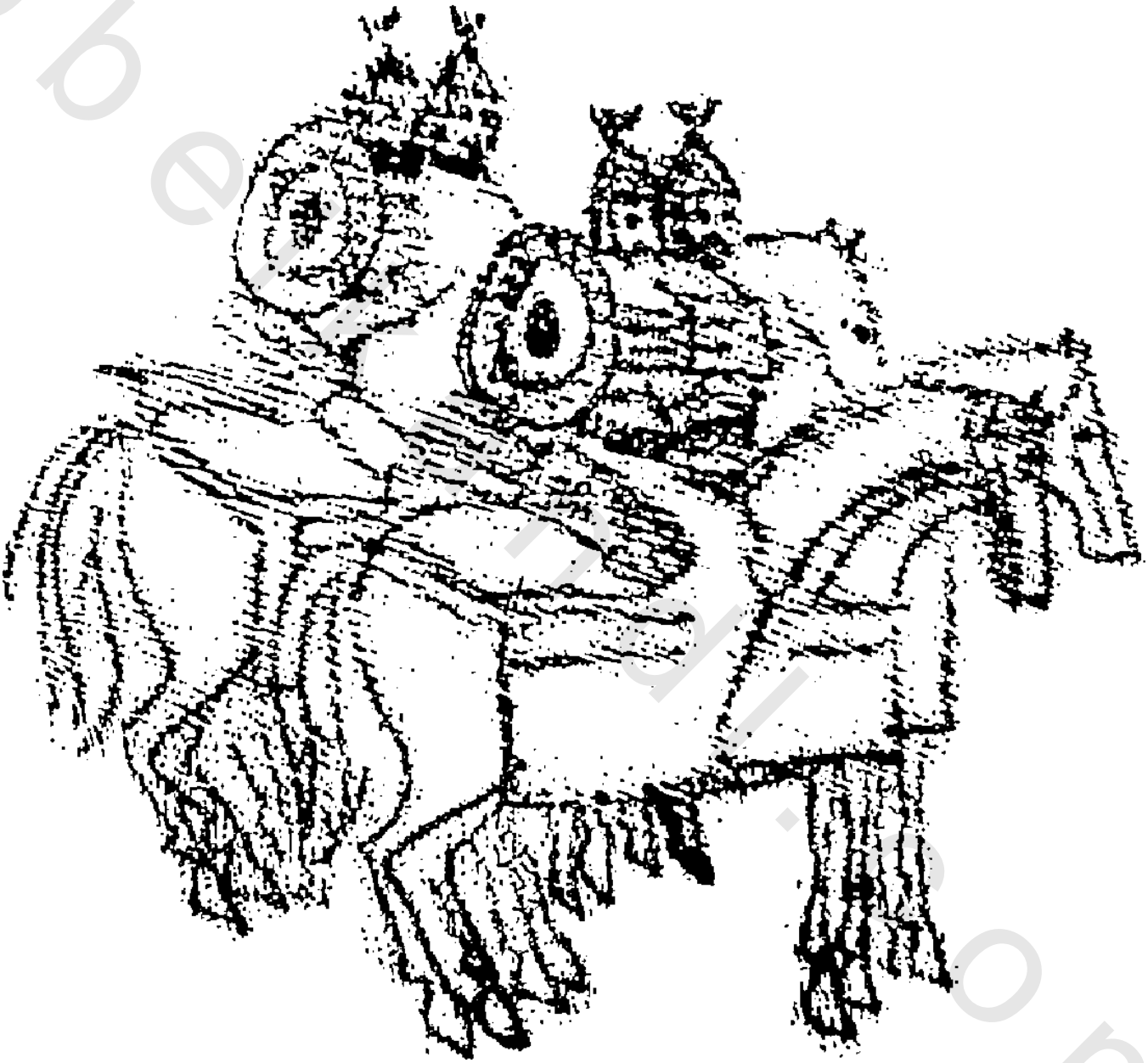

قائماً . وأن والده ذهب غدراً . وأن عليه ألا ينام عن الثأر ، فالدم لا يعوض إلا بالدم . ولا جزاء لمهرقه غير القتل . والتبعة الأولى تقع على عاتق العبيد والأحباش ؛ فلم يكد المكرم يستقر شهراً واحداً فى قاعدة ملكه حتى قام يستنهض العرب من جديد للأخذ بالثأر من الأحباش . فأمر برسالة قرئت على أعوانه فى الوعظ والتذكير وفضل الجهاد وما فيه من الثواب العظيم . واستبشر الناس بذلك ، وأجابوه إلى ما أراد وقام الشعراء يحرضون العرب على وجوب الأخذ بثأر مليكهم العظيم على الصليحى . ومن هؤلاء الشاعر الكبير الحسين ابن على القمى الذى نظم قصيدة طويلة جاء فيها :

أقحطان هزّى البيض واعتقلى السمرا
وردّى العوالى من دماء العدا حُمْرا
ولا تهدرى ثأر المظفّر إنه
بنى لكم مجداً وشاد لكم فخرا
سرى نحو بيت الله ، لله قاصداً
يروم من الله المثُوبة والأجرا

ولما صحت عزائم العرب على القتال ، بعد أن استنهضهم الملك والشعراء والخطباء قام الملك المكرم من صنعاء فى غرة شهر رمضان سنة ٤٦١ هـ قاصداً سعيداً الأحول فى زبيد ،

فوصل إلى العمد فى اليوم الخامس من ذلك الشهر . وعرض عسكره فى خارج القرية . ثم وعظهم وحثهم على عدم النهب والسلب وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم . وأنهم لا يريدون إلا قصد عدوهم فأطاعوه .

وفى صبيحة اليوم السابع من ذلك الشهر توجه المكرم إلى زُبيد حيث جاءته الأخبار بأن سعيداً الأحول قد تحرك فى أول رمضان إلى المخلاف وإلى عدن فأرسل المكرم قائده عامر بن سليمان الزواحى فى جل من معه من جنب وسنحان وحمر إلى جهة نقيل صيد، واتجه المكرم بمن معه من همدان وأهل حراز نحو جبل الشعر حيث كان سعيد الأحول وجيشه قد تعلقوا بالجبل فملك الرعب قلوب الأحباش ، وأيقنوا بالهلاك . وهنا حمل المكرم عليهم حملة من يختار الموت على الحياة الثمانية . فهزمهم هزيمة منكرة ؛ وأدرك رجل من قبيلة شاكر الهمدانية سعيداً الأحول فقتله عند قرية « مآبة » وأتى برأسه إلى المكرم . وقتل بلال بن نجاح وأخوه مالك بجهة نقيل صيد على يد عامر بن سليمان الزواحى . وعاد المكرم بعد ذلك إلى زُبيد . وفى اليوم الأول من شوال صلى بالناس العيد . وخطبهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه على ما قيضه له من الأخذ بثأره .

وبعد كل هذا ترك المكرم زُبيد بعد أن ولى عليها الأمير سبأ بن أحمد الصليحى ثم سار وراء جياش بن نجاح فوصل إلى الحجر . وفيها علم أنه قد هرب إلى بلاد الهند . فاتجه إلى الساعد . وفى هذه الأثناء وصلت السجلات المستنصرية تتضمن التشريعات الإمامية . فقرأها على الناس . ثم جاءته الشعراء مهنئين بالنصر . وبعد ذلك ترك قرية الساعد فى نفس اليوم فبلغ المهجم . وأمر بحمل جثتى والده وعمه فى تابوتين إلى زبيد . ثم سار بهما إلى صنعاء . فدفنهما إلى يمين الجبانة العامة وأمر ببناء مشهد جامع لهما .

وأخيراً استقر المكرم فى صنعاء . بعد أن أدّب العصاة . ووطد الاستقرار لليمن . وأخذ يصرف أمور دولته بحكمة وإدارة ومرونة . إلى أن توفيت أمه أسماء بنت شهاب بصنعاء سنة ٤٦٧ هـ . وهنا لابد من القول بأن كتب التاريخ تخالف إدريس عماد الدين فى ذلك فتؤكد أن وفاتها كانت سنة ٤٧٩ هـ ؛ ولكن الحقيقة تؤيد ما ذكره المؤرخ إدريس عماد الدين فى تاريخه « عيون الأخبار » ؛ وكانت قبل وفاتها قد زوجته بأروى الصليحى . وبعد أن تزوج منها رأت بثاقب فكرها أن تجعل ذى جبلة دار قرار . وذى جبلة مدينة جميلة بمخلاف جعفر اختطها عبد الله الصليحى بأمر أخيه الملك على الصليحى .

وجبلة على ما قيل اسم رجل يهودى كان يسكن فيها ويعمل الفخار فى الموضع الذى بنى فيه عبد الله الصليحى دار العز الأولى . وهى تسمى مدينة النهرين لأنها مدينة بين نهرين كبيرين جاريين فى الصيف والشتاء . ويقال فى المثل المشهور إن جبلة لا يدخلها أحد إلا طاهر . وصباحها صباح عروس. ولما انتقل المكرم إليها اختط فيها دار العز الثانية فى ذى بور . وكان حائطاً فيه حدائق وأشجار كثيرة . وهو مطل على النهرين وعلى الدار الأولى .

ويقول عبد الله بن يعلى فى وصف ذى جبلة :

هب النسيم فبت كالحيران شوقاً إلى الأهلين والجيران
ما مصر ؟ ما بغداد ؟ ما طبرية كمدينة قد حفها نهران
خدد لها شام وحب مشرق والتعكر السامى الرفيع يمان

هذا ويحدثنا التاريخ أن الملكة أروى لما طلبت إليه أن ينتقل إلى قصره كانت تبغى له الاستقرار والراحة . فلما انتقل إلى ذى جبلة قالت : العيش هنا أفضل وأسلم للمملكة وأثبت لقواعدها فهى متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل وبها يخصب العيش ويطيب المحل .

ولما جرّب المكرم اقتنع بوجهة نظرها . وجعل ذا جبلة له مقرًّا بعد أن ترك صنعاء . وولى عليها عمران بن الفضل

اليامى . وأبا سعود بن أسعد بن شهاب . وبعد استقراره فترة قصيرة بدار العز بذى جبلة اشتد عليه مرض الفالج الذى أصابه بعد تخليص والدته أسماء من الأسر بزبيد . فأشار عليه الأطباء أن يحتجب عن الناس لذلك السبب . فترك ذا جبلة وطلع إلى حصن التعكر بعد أن فوض لزوجته شؤون إدارة الدولة .

وكان الملك المكرم قد ولّى على صنعاء — كما ذكرنا — القاضى عمران بن الفضل اليامى الهمدانى أحد أقطاب الدولة الصليحية عندما انتقل إلى ذى جبلة . ثم عاد فعزله عنها . وكان ذلك من الأسباب التى باعدت بينه وبين القاضى عمران . وفى ذلك يقول القاضى عمران مخاطباً الملك المكرم والأمير سبأ بن أحمد الصليحى :

ولا تجرحا بالعزل أكباد معشر إذا غضبوا علّ القنا وتكسّرا
فلو ان مولانا معدّاً أتاكما بعزلٍ تولى الكل منا وأدبرا
فلا تفرقا من لفه والداكما وعوداً إلى عقليكما وتدبرا
فإن أنتما أنكرتما ما نظمته فصدقى غداً من طلعة الشمس أزهرا

وفى أثناء مرض المكرم وصل إلى باب التعكر المسمّى بباب كليب القاضى عمران ومعه جماعة من الناس يريدون مقابلته . فمنعه القائمون على خدمة المكرم من دخول الحصن

لما به من المرض ، وصرفوا أمره إلى الملكة أروى بذى جبلة ، ولكن هذا التصرف أغضب القاضى عمران وقال :

أباب كليب إننى لك هاجر على أننى داع لمولاك شاكر

وكان المكرم إذا دخل عمران بن الفضل ينزل عن السرير ويقوم إليه ويأخذ بيده فيصعده معه إلى السرير ، وقد دخل القاضى إليه ذات يوم مع سميه عمران بن الشاعر العثمانى الذى هجا الملك على الصليحى لما ظفر به سعيد الأحول . وعندما دخل القاضى عمران قال : لا أصعد السرير حتى تقضى لى حاجتى . فقال له المكرم هى مقضيّة ولو كانت فى أمان العثمانى . فقال عمران ذلك ما أريد . وهذا الغلام ولده ، فقام الغلام وأنشد قصيدة أبيه ومطلعها :

ماذا ترد على الركبان عدنان إن لم تجد بجميل الصفح قحطان

فقال المكرم بعد إتمام الإنشاد : إن صدق ظنى فإن أباك قد هلك ... ويروى أن الشاعر قد هلك يومئذ قبل وصول ولده إليه .

والواقع أن الملك المكرم لم يطلع التعكر إلا بمشورة الأطباء عليه بالاعتكاف . ولكن ما لبثت أن عادت المياه إلى مجاريها مرة أخرى بعد وفاة الملك المكرم . لأن القاضى عمران حارب النجاحيين فى عهد الملكة أروى ، وقتل أخيراً فى

موقعة الكظائم سنة ٤٧٩ هـ كما سيأتى ذكره .

والآن نقول — ونحن نأتى إلى الفصل الأخير من سيرة الملك المكرم — إن الدولة الصليحية فى عهده بلغت أقصى اتساعها ؛ ولم تكسب أرضاً ولا نفوذاً أكثر مما كسبته فى ذلك العهد الزاهر . فالمكرم قام بأمر الملك فى اليمن وما يتبعها خير قيام ، ولم تحُل الظروف التى حاقت بالدولة بعد مقتل والده العظيم الملك على الصليحى دون إتمام البناء وتأمين الرخاء للشعب اليمنى . ولقد كان للانتصارات الحاسمة وتذليل الصعاب التى أحرزها فى وقت قصير أكبر الأثر فى تكوين وحدة اليمن التى تمت فى عهده ، وهى التى جعلت المؤرخين يصفونه :

بأنه كان ملكاً شجاعاً شهماً جواداً مقداماً سموحاً حتى مع أعدائه عند المقدرة ، ولهذا لقّبه الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله « ذا السيفين » و « داعى السيف » . وكان فوق ذلك فصيحاً خطيباً مشهوراً بالثبات والإقدام ، ولم يكن فى زمانه من يستطيع حمل رمحه وسيفه وقوسه ؛ أوله شدة قوته ، وعظيم شجاعته ، وجمال خلقته . غير أن الأقدار لم تسنح له لإكمال البناء والتربع على العرش الكبير الذى أقامه والده ورواه بدمه ، ثم جاء هو فناضل لأجل الإبقاء عليه معززاً وطيد الأركان ، وأخيراً ضحى بصحته ووجوده لأجله .

ومهما يكن من أمر فإن الملك المكرم الصليحى بشجاعته وشهامته وفصاحته وكرمه وتسامحه — ظل برغم مرض الفالج الذى أصابه فجأة حين خلص أمه السيدة الحرة من الأسر يتتبع سير الأمور عن كثب من حصن التعكر . وإن لم يكن يتدخل بها عالماً أن أمور الدولة وشؤونها بأيدٍ أمينة ، ويكفى أن تكون زوجته الوفية الملكة أروى الصليحى هى التى تدير شؤونها وتشرف على تدبير أمورها .

وأخيراً مات الملك المكرم فى حصن التعكر سنة ٤٧٧ هـ وبذلك ختمت سيرة مجاهد كبير عاش لأجل بلاده . وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ اليمن وهى لا تقل عمن سبقوها . أعنى بها الملكة أروى الصليحى .